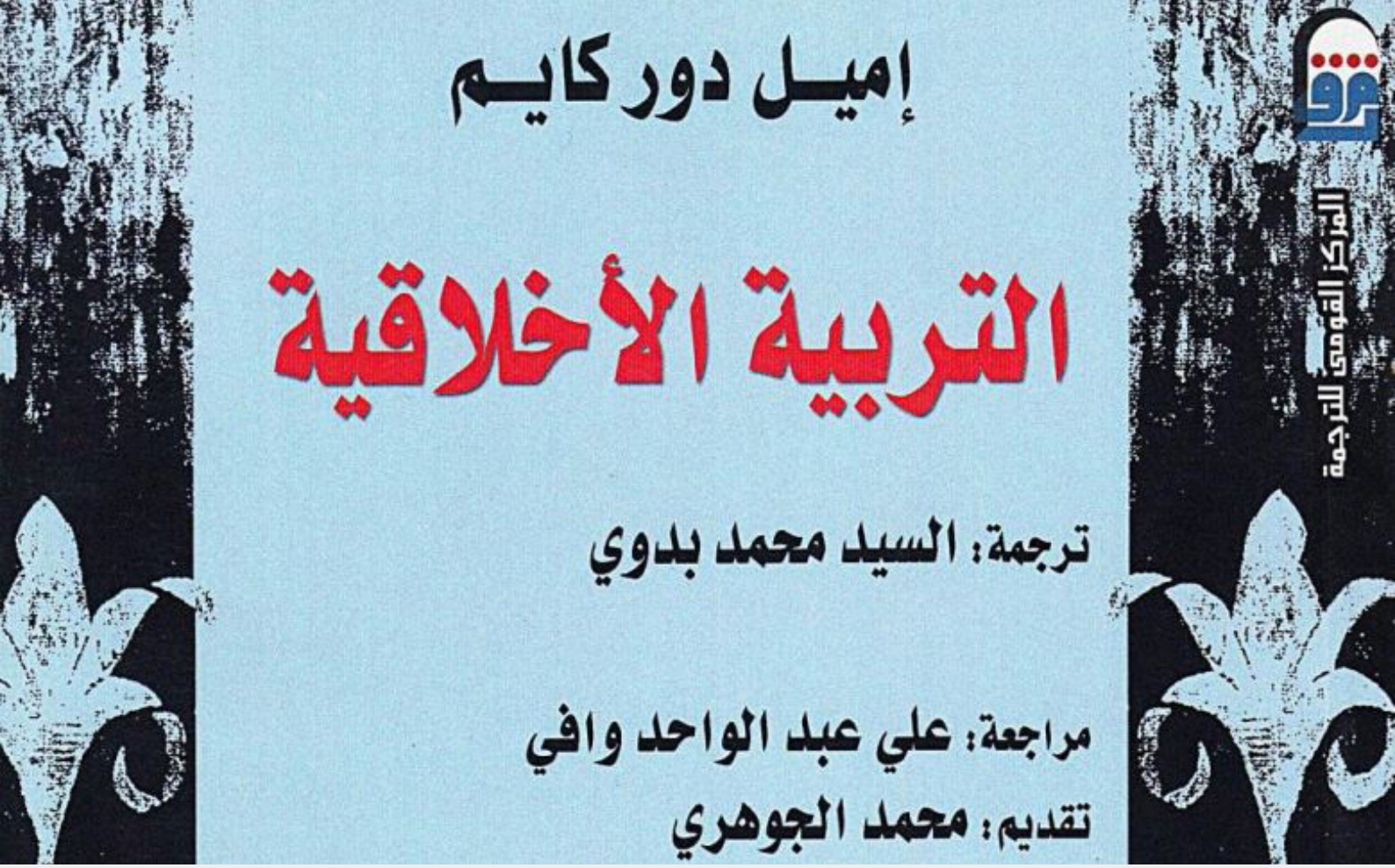


# قراء في كتاب إميل دوركايم: التربية الأخلاقية

إعداد: إسراء عبدالله موسى

تاريخ النشر: 24 / 10 / 2021م

## قراء في كتاب إميل دوركايم[1]: التربية الأخلاقية

صدر عن المركز القومي للترجمة بمدينة القاهرة سنة 2015 م كتاب إميل دوركايم التربية الأخلاقية «éducation morale » ويأتي الكتاب في جزئين يناقش الجزء الاول عناصر الحياة الأخلاقية والثاني يتحدث عن كيفية تكونها عند الطفل.

يُبرز الكتاب المفاهيم الدوركايمية المتعلقة بالتربية الأخلاقية، حيث يوضح أنها يجب أن تعتمد بصورة أساسية على ثلاثة عناصر: الأول، هو روح التنظيم والخضوع لها (بمعنى يجب أن يكون هناك نظام معين لتنظيم السلوك). والعنصر الثاني، يتمثل في الارتباط بجماعة اجتماعية معينة؛ إذ لابد للإنسان ليكون أخلاقيا أن يتعلق بشيء غير ذاته، بمثل أسمى - هو المجتمع - كما يقرر الكاتب، والثالث هو استقلال الإرادة.

١ إميل دوركايم عالم اجتماع فرنسي مولود بمدينة إبينال سنة ١٨٥٨ و توفي بباريس سنة ١٩١٧، و يعتبر وريثا للنظرية الوضعية و من رواد الحركة العلمية في عصره، شغل كرسي علم الاجتماع و التربية بجامعة بوردو و السوربون. و قد ترك دوركايم مؤلفات و بحوث كثيرة منها قواعد المنهج في علم الاجتماع وتقسيم العمل الاجتماعي والانتحار وغيرها، نشر بعضها في حياته، و نشر أتباعه البعض الآخر بعد وفاته.

أصل الكتاب عبارة عن محاضرات في «التربية الأخلاقية» وهي أول ما ألقى دوركايم من دروس في السوربون في علم التربية، وكان ذلك في عام ١٩٠٢ -١٩٠٣ وكان دوركايم قد شرع في إعدادها منذ زمن بعيد في أثناء قيامه بالتدريس في جامعة بوردو، ثم أعاد إلقاءها بعد ذلك، كما حدث في عام ١٩٠٦ -١٩٠٧ بدون أن يغير فيها شيئا.

وعُرف دوركايم باتجاهه المحافظ المتعلق بالتربية وعلومها والاتجاه الثوري المتعلق بعلم الاجتماع في علاقة واضحة مع النزعة الإصلاحية التي كانت سائدة في عصره. حيث تقول علياء شكري: « إن كل أعمال دروكايم تمثل جهداً واحداً منسقاً في سبيل البحث عن تنظيم جديد للمجتمع « وهو ما يمثل التوجه الثوري.. « أو عن حل للأزمة التي كانت تعيش فيها المجتمعات الأوروبية منذ أكثر من قرن من الزمان « وهذا هو التوجه المحافظ.. «و الحق أن هذا الإحساس بالأزمة لم يكن قائماً عند دوركايم وحده، ولكننا نصادفه منشوراً عند سائر الكتّاب وفي سائر المؤلفات في تلك الفترة»١.

«هذا مع أننا ندرك تمام الإدراك أنه كتب في عصر غير عصرنا وفي مجتمع غير مجتمعنا، لكنه ما زال يحمل كثيراً من القيمة والفائدة وهذه هي عظمته التي لن يمحوها اختلاف الاماكن وتعاقب الأزمان». بهذه الكلمات ختم محمد الجوهري تقديم كتاب «التربية الأخلاقية»، وهو بذلك يسلط الضوء بوضوح على أهمية الكتاب و موضوعه .

إن المتتبع للتطور الاقتصادي والاجتماعي خلال القرن الماضي يلاحظ ما صاحبه من المشكلات الأخلاقية بمختلف تمثلاتها وظاهرة «الاستعمار» ما كانت إلا انعكاساً لتلك الحقيقة وما فيها من انحطاط أخلاقي وهيمنة القوي على الضعيف. وعلى مستوى أصغر يلاحظ الازدياد المطرد للعنف داخل المؤسسات المدرسية و/أو التعليمية وخارجها في ظل دورها المهم في التربية الأخلاقية. والترابط بين الاخلاق والمجتمع وثيق جدا؛ إذ أن كل مجتمع يقوم بفرض قيمه و معاييره وقوانينه في صيرورة متغيرة عبر الزمان والمكان. والنظام التربوي يهدف لغاية التنشئة الاجتماعية ويعتبر هذا النظام أداة في الصراع الأيديولوجي والذي تختلف فعاليته تبعاً للفترات وللحظات التاريخية.

يقول بورديو إن المؤسسة التعليمية كحقل يتمتع باستقلال نسبي له قوانينه الخاصة، يستمد مادته الخام «التلاميذ» من المجتمع الذي ينتمي إليه بجميع مكوناته الثقافية، من عادات وتقاليد، أو بعبارة بورديو مجموع «الجينات المتوارثة»، فإنها تعمل على ترسيخ هذه المكونات عن طريق شحن التلميذ منذ طفولته بمجموعة

١ علياء شكري، علم الاجتماع الفرنسي المعاصر، الكتاب الثامن من سلسلة علم الاجتماع المعاصر، صدرت طبعته الأولي ١٩٧٢ عن دار الكتب الجماعية، ص ٦٨

من القيم التي لا تبتعد في مضمونها عن عادات وتقاليد المجتمع الذي تنتمي إليه بشكل غير ملموس ومرئي، لتعطينا مجتمعاً «مربى» سيعمل في ما بعد بدوره على إمداد هذه المؤسسات بالمادة الخام، وهكذا دواليك، وفي حال فشلت عملية التربية فإن المؤسسة تضطر لإعادة إنتاجه عبر مفعول ارتجاعي، إلا أنها في نفس الوقت تعمل على تكريس التفاوتات الرمزية- المادية لدى الطبقات الاجتماعية، فإذا أخذنا مثال اللغة مثلاً فإن التلميذ الذي يملك رأسمالاً مادياً مرتفعاً تجده يختزن رصيداً معرفياً هاماً مقارنة مع الفقير، وبذلك فالأسرة تستثمر الرأسمال المادي لتحوله إلى رأسمال ثقافي، فالأول تجده يتعامل بواسطة بروتوكول لغوي خاص به يعبر عن مستواه الثقافي، وبذلك تكون فرصة الغني أكثر بكثير مما لدى الفقير. إن عدم تكافؤ الفرص هو قمع ذهني تقوم به المؤسسة بتواطؤ مع الدولة دون أن نحس أو نشعر به. لهذا تلعب الايديولوجيا دورًا كبير في إعادة إنتاج المجتمع من خلال التربية[١].

يفترض دوركايم أن الأحداث الاجتماعية كأشياء، وتصوره للتربية كظاهرة سوسيولوجية لا ينفصل عن تصوره العام للظاهرة الاجتماعية الأخرى؛ حيث يقول : «والإنسان الذي يجب أن تحققه التربية فينا، ليس هو الإنسان كما خلقته الطبيعة، ولكن كما يريد المجتمع أن يكونه، ويريده ما تقتضي ذلك نيته الداخلية»[٢]. أي أن التربية ظاهرة مستقلة عن الفرد وهي خارجية ملزمة إذ أن النظام الاجتماعي يفرض معايير أخلاقية وعادات تربوية يلزم الفرد والجماعات بالإمتثال لها والتكيف معها وإلا قوبلوا بالعقاب . حيث يقول : « الواقع أن القانون والعرف الأخلاقي العام يحدد لنا ما يجب أن تكون عليه تصرفاتنا . فلا يصح أن تتصور الأخلاق على أنها شيء عام يتحدد كلما شعرنا بالحاجة لذلك . بل إنها مجموعة من القواعد المحددة. فهي عبارة عن قوالب محددة الأشكال نحن ملزمون بأن نصب فيها أفعالنا[٣] ».

وفي اعتباره بإلزام الأفراد وجعله المجتمع قالب لتشكيلهم، محو تام لاستقلال الأفراد الذاتي وغياب لحرياتهم وجعلهم كالدمى لتحقيق أفكار واعتقادات وأهداف المجتمع . على الرغم من أنه يشير لفكرة أن البعض قد يتوهم أن ما تفرضه علينا الأخلاق المجتمعية يوحي بمحو الشخصية الإنسانية في أخرى مختلفة عنها موضحا ذلك بأن الناس اعتادوا وضع الفرد مقابل المجتمع وكأنهما متنافران، لكن الواقع أن الفرد جزء من المجتمع

١ Bourdieu, Pierre. 1979. *La Distinction. Critique Sociale du Jugement*. Paris: Les éditions de minuit. Page 549.

٢ J. Leif et Rustin, Philosophie de l'éducation, T.I ed, Delagrave ,١٩٧٠ p ١١٥-١١٦

٣ دوركايم، كتاب التربية الأخلاقية، ص ٢٧.

ولا يكتمل وجوده إلا إذا تعلق بمجتمع . وهذا صحيح لكن هذا التعلق يجب أن يكون محدودا ولا يغلو حتى يجعل المجتمع هو المثل الأعلى الذي يسعى الفرد للسمو إليه ليكون كائناً أخلاقيا . ودوركايم من خلال هذا الطرح يجعل المجتمع موازياً لفكرة الإله في الأخلاق الدينية وهو بذلك أيضاً يقابل ما هو اجتماعي بما هو مقدس ؛إذ يقول : « يتوفر المجتمع بفضل الفعل الذي يمارسه على العقول، على كل ما يسمح له بأن يثير فينا الاحساس بالألوهية، نظراً لأن المجتمع يمثل بالنسبة لأعضائه ما يمثله الإله بالنسبة للمؤمنين به « ١

على العكس مثلا من ماكس فيبر الذي عاش في عصره، الذي يعتقد أن الممارسات الدينية الاجتماعية إنما تنشأ من معتقدات الأفراد وتتجسد في ممارساتهم الجماعية لها.

ينطلق دور كايم في كتابه من فكرة مركزية يسعى من خلالها لإيجاد تربية لا تستند إلى المبادئ التي يقوم عليها الدين وحدها وإنما لتربية عقلية خالصة إذ يدعي أن الاعتماد على العلم (العقل) يمكنه توجيه مسارنا لتحديد الغاية التي توجه لها سلوكنا ونعيش المثل الأعلى الذي يجب أن نصبو إليه حيث يقول في ثنايا الكتاب: (أما إمكان وجود تربية برمتها خاضعة للعقل، فذلك ما تتضمنه المسلمة العامة التي اتخذت أساسا للعلم . وأعني بذلك المبدأ العقلي الذي يمكن أن يصاغ في هذه العبارة: ليس هناك في عالم الحقيقة ما يمكن أن نجزم باستعصائه أصلا علي العقل البشري ).٢

وبمضي قُدما ليقرر أن التربية القائمة على دعائم عقلية( علمية )خالصة ممكنة من الناحية المنطقية،بل إنها متماشية مع مجرى التاريخ. ووظيفة الدين الآن تقتصر على حماية الأخلاق فهو السبب الذي يضمن لها الاحترام ويردع من يحاول خرقها، فالرابط بين الأخلاق والدين إذن هو رباط ضمان لا رباط أساس ودوره إنما يتلخص في إيجاد قوة لنفاذ النظام الخلقي بين الناس.

ولعلمه أن هذا التغيير سيواجه المقاومة،يوضح أنه ليس بصدد عملية إحلال و استبدال، بل لابد من النفاذ إلى لب المبادئ الدينية لتنقيتها واستخلاص الحقائق الأخلاقية منها حتى تكون ممكنة لأن تخضع للغة العقل والعلم مع مراعاة إبراز الطابع المقدس في الأخلاق وإشعار الطفل به بصورة عقلية.

لكن في نفس الوقت يقول في إحدى صفحات كتابه : « أما إذا شئنا فهم كل شيء فهماً عقلياً،فسنجد أن قوانا الخاصة لا تكفي لكي

١ كتاب الأشكال الأولية للحياة الدينية، إيميل دور كايم

٢ كتاب التربية الأخلاقية ص ٦

تعلل وتجيب على سؤالنا الدائم ((لماذا)) ١. وهو أشبه ما يكون بإعتراف منه بقصور ودور العقل، وحوجتنا لمصدر آخر غير المجتمع المكون من مجموع الأفراد محدودي الفهم العقلي . إذ لابد من وجود مصدر فوق فردي وفوق مجتمعي كذلك.

وفي مقابل هذا الطرح اللاديني نجد أطروحات مخالفة، تعتبر الدين أكبر دافع يدفع الإنسان للتمسك بالأخلاق والإلتزام بها وعدم مخالفتها، ويظهر تفوق العقيدة الدينية في الحياة الإنسانية إذا قورنت بالقانون، ذلك لأن القانون لا يكفي وحده لضبط السلوك الإنساني. ويذهب الفيلسوف الألماني فيخته إلى أن الأخلاق من غير دين عبث، وبالمثل يضع غاندي الدين ومكارم الأخلاق في مرتبة واحدة لا يقبلان الانفصال، بل يرى أن الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذي الزرع وينميه.

دوركايم من خلال محاضراته يوضح أنه لكي نشرع في تربية عقلية لابد من الاحتياط حتى لا تفقد الأخلاق شيئاً من عناصرها و من بعد ذلك لابد من إعداد وسائل لإدخال العناصر الجديدة التي تصاحب الإنتقال من الأخلاق الدينية إلى تلك القائمة على العقل . ويخلص إلى أن العناصر الأساسية لكل حياة خلقية لا بد لها من نظام معين لتنظيم السلوك وهذا هو العنصر الأول من عناصر الحياة الأخلاقية عند دوركايم .. يقول : « فالنظام يضع للإرادة عادات، و يفرض عليها قيودا : فهو منظم ومحدد «٢.

يعد المجتمع في تصور دوركايم ذلك «الوعي الجماعي»، فهي عبارة عن كينونات عادية، قبل أن يكون لها وجود ملموس أو مألوف٣ ويجعل القواعد والعادات المحددة محددة مسبقا بواسطة المجتمع هي المقرر لما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي وينص على أن كل عادة جمعية لا تخلو تقريباً من طابع خلقي 4 ومدى احترام الأفراد لتلك القواعد يتحدد بقوة سلطانها وهيمنتها وهو ما توفره السلطة والنظام وما هما إلا وجهان لعملة واحدة وأن كل قاعدة تعلمنا الاعتدال والتحكم في أنفسنا، فهي أداة للتحرر والحرية وخلاصةً يريد دوركايم أن يصل إلى أن الخضوع للنظام هو المنظم للسلوك و الضابط للالتزام بالأخلاق

بالنسبة لدوركايم، فإن المراقبة الاجتماعية للأفراد تعتبر أمراً ضرورياً حتى لا ينهار هذا الأخير من جراء وفرة الحرية، لأن المجتمع السليم لا يمكن أن يتحقق تفتحه ونموه إلا بالاندماج

١ "ص٤٠ نفس المصدر

٢ دوركايم، مرجع سابق، ٤٨.

٣ عبد الكريم غريب، سوسيولوجيا التربية،(المدينة: منشورات عالم التربية ٢٠٠٠)، ص ٣٦-٣٧.

٤ كتاب التربية الاخلاقية ص ٢٨

ضمن بيئة تتفوق وتعلو عليه[1] وهذا الطرح يشير للعنصر الثاني من عناصر الحياة الأخلاقية في هذا الكتاب وهو التعلق بالهيئات الاجتماعية إذ يقول مجال الحياة الأخلاقية لا يكون إلا حيث تكون الحياة الجماعية، أي بعبارة أخرى، أننا لسنا كائنات أخلاقية بقدر ما نحن كائنات اجتماعية و لا تصبح القواعد الأخلاقية ذات معنى إلا إذا كان الموضوع الذي تخضع له يحتل مرتبة أسمى وأرفع من الأفراد، وهذه المنزلة الفوق فردية يحتلها المجتمع كما يقول والمجتمع هو غاية الاخلاق وهو أيضا مبدعها وبفعله خلقت وهو النموذج والمصدر لكل سلطة أخلاقية وينص على أن يظهر المجتمع كقوة مناصرة وحامية لنا، فهو الأم الرؤوم التي تستمد منها كل ما هو أساسي في جوهرنا العقلي والأخلاقي، والتي تتجه نحوها إرادتنا يدفعها شعور من الحب والإعتراف بالجميل فهو في إحدى الحالتين أشبه بإله صارم مرهوب الجانب، و مشرع دقيق لا يسمح بأي خرق لأوامره ؛ وفي الأخرى أشبه بالإله المنقذ الذي يضحي المؤمن من أجله بقلب راض [2]

وفي حديثه عن العنصر الثالث استقلال الإرادة يقدم دوركايم طرح مفاده أن الأخلاق ليست من صنعنا كأفراد، بالرغم من مساهمة كل منا في بنائها إلا أن تلك المساهمة ضئيلة جداً معللا ذلك بأن التحولات الأخلاقية الكبرى تحتاج زمناً طويلا وأن المجهودات الفردية في الإصلاح غير ذات بالمقارنة مع نتيجة التغيير يقول وهكذا لا نستطيع أن ننكر أن الأخلاق إن كانت نتيجة لمجهود جمعي، فإنا تتلقاها أكثر مما نصنعها، فموقفنا منها سلبي أكثر منه إيجابي وسلوكنا مسير أكثر منه بإرادتنا [3] ويبين فيما بعد أن استقلال الإرادة مهم لأن فيه اعتراف بفردانية الشخصية الإنسانية وليخرج من هذا الموقف التناقض يقدم حلا هو الموافقة المستنيرة كما يقول ؛ أي الخضوع للنظام إنما تم التوصل عليه تجريبيا عن طريق العلم والإثبات العقلي ويكون الخضوع بهذه الطريقة موافقة مستنير وليس سلبيا كما هو خضوع المؤمنين فالعلم إذن هو مصدر استقلال الأفراد حسب ادعائه بصورة أخرى لابد من فهم وإدراك واضح لأسباب سلوكنا وهذا الإدراك هو الذي يضفي استقلال الارادة الذي يتطلبه الشعور الأخلاقي

ويبلغ من تحيزه المبدأ العلمي وتعصبه له لأن يعلن عن قيام علم أخلاق بشري يتوفر على أخلاق قائمة تجريبيا عن طريق العلم وبذلك فإن هذا العنصر الثالث استقلال الإرادة لا مكان له في الأخلاق الدينية، حيث الأخلاق تحتوي على جانب لا يمكن إخضاعه للعلم وصحيح أن

١ مرجع سابق،
٢ التربية الاخلاقية ص ٩٠
٣ نفس المصدر ص ١٠٤

فكرة الأخلاق الإلهية حيث وجود الله لا يمكن إثباته مخبريا لكن هناك جانب كبير من الحرية في المعتقد الديني وللإنسان حرية كاملة تمكنه من اختيار ما يؤمن به ويعتقده دون أن يفقد ذاته في شخصية المجتمع بل يكون فردا مسؤولا، وتحمله للمسؤولية ذاك ينطوي على قدر كبير من حريته وإدراكه لفكرة أن هناك عواقب لفعله الأخلاقي يدل أيضاً على وجود حرية الإرادة واستقلالها دون حاجة منا لاختبار ذلك تجريبيا وضمه لمظلة العلم حتى يصبح موجودا ونلمس نوعا من التناقص هنا إذ هو يرفض كل ما هو غير قابل التجريب لكنه في موضع من الكتاب يقول إن المثل الأعلى الذي يسمو إليه الأفراد هو المجتمع متمثلا في روح المجتمع والتي هي عبارة عن مجموع الأفكار التي يمكن أن يحيط بها الفرد وحده و تتجاوز نطاق عقله ونتساءل هنا،كيف يمكن إخضاع تلك الأفكار للتجريب العلمي؟

## خلاصة

لا يتجادل عاقلان في أهمية التربية وبخاصة الأخلاقية منها، فهي عماد التربية وهي بحاجة لضبط وبلورة حتى نستطيع الاستفادة منها في تحسين حياة الأفراد والمجتمعات

والقارئ للكتاب يلاحظ كثرة تكرار الأفكار وشرحها، لكن يمكن جمع عدد من الأفكار المركزية للكتاب فيما يلي

إن دروكايم يعتمد على دور البيئة الإجتماعية وتأثيرها على سلوك الأفراد حيث نرى بوضوح أن البيئة الاجتماعية هي التي تؤثر على الفرد أكثر من تأثيره عليها،وأن الافراد لا يعيشون منعزلين عن بعضهم بل يتصلون بوسائل متعددة مما يجعلهم يؤثرون ويتأثرون ببعضهم وبالتالي ينشأ بينهم التفاعل والتماسك والتكامل الاجتماعي، والشخصية الجماعية تبقى حتى بعد فناء شخصية أفرادها وعندما تفقد المعايير قدرتها على توجيه السلوك أو حينما يضعف الضمير الجمعي يحدث مشاكل مجتمعية أو تربوية وهو تعبير عن حالة الفوضى الأخلاقية وضعف الموجهات السلوكية والفكرية وعدم الاندماج الاجتماعي

و الأفكار الواردة في الكتاب جديرة بمزيد من البحث ونظر حتى لا تصطدم بمعوقات عندما

ترقى للتطبيق العملي وصاحب تلك الأفكار رجل لم يكن كتابه عملا شاذا أو اعتباطيا بل الظاهر أنه تأمل وخبِر الأمر جيداً قبل أن يلقي محاضراته تلك وبالمرور على مؤلفاته نجد أغلبها يقوم على فكرة الأخلاق فبالإضافة لكتابه هذا نلمس كثرة إطراد مركزية الأخلاق عنده، مثلاً كتاب الأشكال الأولية للحياة الدينية و تقسيم العمل و كتاب الانتحار حتى ظاهرة الانتحار يعتبر أنها أخلاقية بدرجة ما و يمضي لأكثر من ذلك إذ نجده يقرر في سياق منهجه الإصلاحي، أنّ إصلاح المجتمع والدولة إنما يقوم على الأخلاق

ويحصر دوركايم موضوعه في معالجته موضوع التربية الأخلاقية في الطفولة الثانية في المدارس العامة موضحاً دور المدارس واعتبارها الأداء المنظمة للتربية الوطنية

يؤكد دروكايم على أن الرابط بين الاخلاق والدين رابط هزيل ضعيف وبحاجة لإستبداله برابط اقوى وهو الرابط المجتمعي

إلا أن خلع عباءة الدين من كل شئ كسمة غالبة في ذاك العصر وجعل المنهج العقلي (العلمي هو الضابط جعل دوركايم يقع في أفكار تخالف طبيعة الفرد من حيث هو إنسان وبدرجة ما تمحو شخصيته الذاتية وتتعارض مع طبيعة الأخلاق ذاتها

والواقع يقول أن التربية الأخلاقية القائمة على الدين ممكنة إذا صح مصدرها وشُكلت قوائمها لتتناسب مع تحديات العصر وحاجة المجتمع والأفراد من قبل والحوجة للتربية الأخلاقية ضرورة ملحة نلمسها في الفضاء العام في مدارسنا ومجتمعاتنا